اجتهادات
كسالى ليسوا إلا

كلما ازداد التفاوتُ الاجتماعى فى مجتمعٍ أو آخر، وبعُدت المسافة بين قلة فى أعلى الهرم الطبقى وكثرة فى المنطقة بين وسطه وأسفله، كثُر الجدالُ بين المدافعين عن هؤلاء والمنتصرين لأولئك.

ونجد فى هذا الجدال سجالاتٍ لا تخلو من سخريةٍ أو تعبيرٍ عن غضبٍ واتهاماتٍ متبادلة. كما نجدُ فيه أيضًا نقاشاتٍ فى الموضوع وليس حوله، وحججٍ تُطرحُ سعيًا للإقناع بغض النظر عن قيمتها.

ويظهرُ فى هذه النقاشات كيف أفادت أفكار الليبرالية الجديدة وطروحاتها المدافعين عن التفاوت الاجتماعى، وأمدتهم بمجادلاتٍ وحججٍ، فصارت خطاباتهم أكثر عمقًا، وخلت فى الأغلب الأعم من المقولات السطحية التى لجأ إليها أسلافهم المدافعون عن التفاوت الاجتماعى اعتمادًا على الأفكار المحافظة التقليدية.

ويلاحظُ من يتابعُ بعض هذه النقاشات أن الحجج الأكثر استخدامًا فى الدفاع عن التفاوت الاجتماعى تستندُ إلى مبدأ

الاستحقاق الذى بلوره مُنظَّرون ليبراليون جدد, وتركزُ فى اثنتين من الأفكار الأساسية المرتبطة بهذا المبدأ. الأولى فكرة أن الفروق ثابتةُ بين الموهوبين الذين يعملون بنشاط ويتعبون، وبين الكسالى سواء من يدفنون مواهبهم تحت غطاء السرير حتى تموت، أو عديمى الموهبة أصلا. والثانيةُ أن التنافس لا يكون مثمرًا إذا استُهدف من يعملون ويستثمرون المزايا التى يتمتعون بها، وقُيدوا بمسئوليات ضريبية أو اجتماعية تعرقلهم, أو فوجئوا بقراراتٍ يُصدرها موظفون لم تُختبر قدراتهم، أو تعرضوا لمنافسةٍ غير متكافئة من شركات عامة.

وتكمن مشكلة الفكرة الأولى فى افتراض أن الكسل والنشاط يرتبطان بمكوناتٍ بيولوجية، وليست اجتماعية، وعدم الاستعداد للتفكير فى أثر عدم تكافؤ الفرص والتمييز والإحباط وغيرها من العوامل الاجتماعية، وخاصة حين يكون الموصوفون بأنهم كسالى كُثُرًا ومتزايدين.

ومشكلةُ الفكرة الثانية أنها تستبعد من البداية مناقشة أنماط أخرى من التنافس، بخلاف ذلك الذى يحدثُ فى نظام رأسمالى محكوم بأفكار الليبرالية الجديدة, وخاضع لسطوة الأقوياء, ولا تتسع من ثم للبحث فى تفاعلاتٍ مختلفة فى نظامٍ يشجعُ الرأسمالية الصغيرة.

وعندما نبحث عن مصدر المشكلتين نجده فى افتراض أن هناك من لا يرغبون فى التعلم وتطوير قدراتهم ويذل الجهد, لأنهم ليسوا إلا كسالى.